المبحث الثالث

المناسبة والتناسب في صور الاستعارة

الاستعارة لغةً: مأخوذة من العارية أي: نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المُعار إليه[1]. كقولهم: استعار المال إذا طلبه عارية[2].

وقد عرف ابن المعتز الاستعارة بقوله: «هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها»[3].

الاستعارة اصطلاحاً: وعرفها الجاحظ فقال: «الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[4].

وعرفها أيضا قدامة بن جعفر بقوله: «هي استعارة بعض الألفاظ في موضع بعض على التوسع والمجاز»[5].

وعرفها الرماني بقوله: «الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»، وقال: «كل استعارة لابد فيها من مستعار ومستعار له ومستعار منه»[6].

وقال أبو هلال العسكري: «الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض. وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (عور).

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٥.

(٣) كتاب البديع: ٢.

(٤) البيان والتبيين: ١/١٥٣.

(٥) كتاب نقد النثر: ٦٤.

(٦) النكت: ٨٥-٨٦.

الإنابة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»[1].

وعرفها الخطيب القزويني بقوله: «الاستعارة مجاز علاقته تشبيه معناه بما وضع له. وكثيراً ما تطلق الاستعارة على استعمال المشبه به في المشبه، فيسمى المشبه به مستعاراً منه، والمشبه مستعاراً له، واللفظ مستعاراً»[2].

والاستعارة في نظر الجرجاني: «أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه تظهره وتجيء إلى الاسم المشبه به فتغير المشبه وتجريه عليه»[3].

ومن تعريفات البلاغيين للاستعارة نستخلص الحقائق التالية:

١- الاستعارة ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

٢- والأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه، وبذلك عُدّ أصلاً، وعُدّت الاستعارة فرعاً له، وعلى هذا فالاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه.

٣- تطلق الاستعارة على استعمال المشبه به في المشبه، فيسمى المشبه به مستعاراً منه والمشبه مستعاراً له، واللفظ مستعاراً.

٤- ملاك الاستعارة بقرب ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر.

٥- والاستعارة تجمع بين خصائص المجاز والتشبيه فقد أخذت من هذين الأصلين ميزاتهما لتكون وسيلة رائعة لانطلاق اللغة.

---

(١) كتاب الصناعتين: ٢٦٨.

(٢) الإيضاح: ٢٧٨.

(٣) دلائل الإعجاز: ٦٧.

٦- والاستعارة (تهتم بعلم دلالة الجملة، قبل أن تهتمّ بعلم دلالة الكلمة)[١].

ومن أجل ذلك تحدث الاستعارة تغييراً في معاني الكلمات التي تنتمي إلى أسرتها[٢].

نماذج من الاستعارات القرآنية:

ومن أمثلة الاستعارة ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٣] الاستعارة هنا في قوله: (وإنه في أُمّ الكتاب) وإنّ اللفظ المستعار هو: (أُمّ) ومعروف أنّ الأم هي الأصل الذي تنشأ منه الأولاد، فاستعيرت هذه اللفظة لتظهر الخفي، وجاء سياقها ليُبين أنّ هذا القرآن: «حقيقته أنه في أصل الكتاب فاستعير لفظ (الأُم) للأصل؛ لأنّ الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئي، حتى يصير مرئيّاً فينتقل السامع من حد السماع إلى حد العيان، وذلك أبلغ في البيان»[٤]. قال الزمخشري: «سمي بأُمّ الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتنتسخ، على رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها»[٥].

ومنها استعارة البشرى بالعذاب: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦]، فقوله -

---

(١) نظرية التأويل: ٩٠.

(٢) ينظر: نظرية المعنى في النقد الأدبي: ٨٨؛ ومصطلحات الدلالات العربية: ٢٠٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣-٤.

(٤) البرهان: ٨٩٢.

(٥) الكشاف: ٢٤١/٤.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

عزّ من قائل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من البشارة التي هي في الأصل الخبر بما يَسُرّ[1]، وقوله ﷻ: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فأطلقها على الإخبار بما يسوء، مما يعني أنّ ذكر (العذاب) قرينة دالة على إنّ قوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ استعارة تبعية تهكمية[2] والقرآن الكريم جعل منها منبّهاً أسلوبيّاً إلى خطورة ما يحذر منه المخاطبين.

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[3] جاءت الاستعارة هنا في قوله (نسلخ): «وهي من استعارة المحسوس لمحسوس بوجه عقلي، فإنّ المستعار من كشط الجلد وإزالته عن الشاة ونحوها والمستعار له إزالة الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمه وهما حسيان والجامع لهما ما يعقل من ترتيب أمر على آخر»[4].

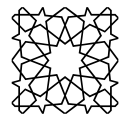

(١) ينظر: أضواء البيان: ٣/١٩٥.

(٢) ينظر: مختصر المعاني: ١/٢٢٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٤) الإيضاح: ٢٧٧.

المبحث الرابع

المناسبة والتناسب في صور الكناية

الكناية لغةً: مصدر من الفعل الثلاثي كنى، قال ابن منظور: «أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنّى عن الأمر بغيره يكنى كناية، وتكنّى: تستَّر من كنى عنه إذا روى، أو من الكنية»(١).

اصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد(٢).

ولعل أقدم من تكلّم عن الكناية أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) في قوله: «ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه ويترك خبره هو قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(٣) حول الخبر إلى كناية التي في أصل الأعناق»(٤).

وقال أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ): «وهو أن تكنى عن الشيء وتعرض به ولا تصرح على حساب ما عملوا في اللحن والتورية عن الشيء، كما فعل العنبري؛ إذ بحث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل، وحنظلة يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك»(٥).

وعرفها الجرجاني بقوله: «الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تأليه

---

(١) لسان العرب، مادة (كنى).

(٢) ينظر: عروس الأفراح: ٢٣٧.

(٣) سورة الشعراء، من الآية: ٤.

(٤) مجاز القرآن: ١٢/١.

(٥) كتاب الصناعتين: ٣٦٠.

وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة... وفي المرأة نؤوم الضحى والمراد أنها مترفة مخدومة»[1].

وعرفها السكاكي فقال: «هي ترك الصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومة لينتقل من المذكور إلى المتروك»[2].

وعليه فالمعنى الكنائي يتضمن معنيين: الأول: واضح يدل عليه ظاهر اللفظ بحسب شيوع استعماله، والثاني: خفي تابع للأول ولازم له بمقتضى العرف والعادة[3].

أقسام الكناية:

قسم البلاغيون الكناية من حيث ما تدل عليه إلى ثلاثة أقسام هي: طلب نفس الصفة وطلب نفس الموصوف وطلب النسبة.

١- الكناية عن طلب نفس الصفة

في هذا القسم تكون لصفة هي المحتجبة المتوارية. وقد تكون الكناية عن الصفة المطلوب بها نفس الصفة، والمراد الصفة المعنوية، كالجود والكرم، والشجاعة ونحوها، لا النعت[4]. وجاءت الكناية عن العفة في القرآن الكريم بأنماط متعددة منها: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[5]. قال الشيخ رشيد: «قيل: هي كناية عن شدة الغضب، مثل حمى الوطيس، وقيل:

---

(١) دلائل الإعجاز: ٥٢؛ وينظر: الإيضاح: ١٨٣.

(٢) مفتاح العلوم: ١٨٩.

(٣) ينظر: مصطلحات الدلالة العربية: ٢٨.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٤؛ والإيضاح: ٢/٣١٩-٣٢٠.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

كناية عن قوة انبعاث الماء، لأنّ التنور يطلق على كوة عين الماء، ولا يشترط في الكناية صحة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتفاق أقدار لأقدار والله أعلم. وعلى كل يكون المعنى فإذا اشتد طغيان الماء»[1]. والكناية عن الندم كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[2]. قال السمين الحلبي: «قوله: (ويقلب كفيه)... وهذا كناية عن الندم، لأنّ النادم يفعل ذلك»[3]. وقال الرازي: هو كناية عن الندم والحسرة فإنّ من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداهما على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة»[4]. وذكر هذا الزمخشري والنسفي[5].

تأتي الكناية عن الكثرة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[6]. قال السمين الحلبي: «وهو كناية عن كثرة الإسلام وفُشُوِّه، لأنه كلما ازداد الإيمان زاد غيظهم»[7].

وتأتي الكناية لغرض الاستكبار نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا

---

(١) أولى ما قيل: ١٥٢/٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٣) الدر المصون: ٤٥٩/٤.

(٤) التفسير الكبير: ١٠٩/٢١.

(٥) ينظر: الكشاف: ٦٧٦/٢؛ ومدارك التنزيل: ١٥/٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

(٧) الدر المصون: ١٩٨/٢.

عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾[1]. قال الشيخ رشيد: «وهذا كناية عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن»[2].

وتأتي الكناية عن مواصلة السير نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾[3]. قال الشيخ رشيد: «كناية عن مواصلة السير السريع، وتهويل للعذاب الواقع أي: أسرعوا»[4].

وأيضاً تأتي للكناية عن الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[5]. قال الشيخ رشيد: «وهذا كناية عن إنه تعالى يجازيهم عليه الجزاء الأوفى، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة»[6].

وتأتي بالكناية بالعفو عن الجناية نحو قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[7] فقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ كناية عن الجناية؛ لأنّ العفو مستلزم بها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت، أمّا قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ فهو بيان لما كنّى عنه بالعفو، ومعناه: ما لك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك وتعلّلوا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.

(٢) أولى ما قيل: ١٩١/٥.

(٣) سورة هود، من الآية: ٨١.

(٤) أولى ما قيل: ١١٣/٥.

(٥) سورة الإسراء، من الآية: ١٩.

(٦) أولى ما قيل: ١٦٦/٥.

(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

لك بعللهم، وهلاّ استأنيت بالإذن ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

وأيضاً الكناية عن الفزع في الحرب بظهور حجل الجارية: كناية عن الفزع. قال النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه:

ويبدو من الخود الغريرة جملها وتبيضُ من هول السيوف المقادم

فقوله: «يبدو... حجلها» أي: حجل الجارية: كناية عن الفزع في الحرب؛ لأنّ العرف أن تكون الجارية في خدرها، وتكون مصونة عن الأنظار، لكن شدّة الفزع أخرجتها عن ذلك كله، حتى بدا حجلها للناظر، فأخذ الشاعر هذه الصورة ليجعلها كناية عن الفزع.

وتأتي كناية عن الهجوم: نحو قوله تعالى: ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعٗا﴾[2]. قال الشيخ رشيد: «أي: أدخلنا الغبار وسط جمع العدو، وهو كناية عن هجومهن عليهم، واختلاطهن بهم عند غلبتهم»[3].

وأيضاً الكناية عن اللين والشفقة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ ..﴾[4]. قال الشيخ رشيد: «وخفض الجناح كناية عن الشفقة واللين والتواضع لهم، مستعار من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن يحط خفض جناحه»[5].

---

(١) ينظر: الكشاف: ٢/٢٦١.

(٢) سورة العاديات، الآية: ٥.

(٣) أولى ما قيل: ٩/٢٣٨.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٥) أولى ما قيل: ٦٠/٢٤٣.

٢- الكناية عن الموصوف:

وفي هذا القسم يكون الموصوف هو المحتجب المتواري. ويكون المطلوب بها نفس الموصوف[١]. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٢]. فالكناية في الآية، كناية عن موصوف هي الأنثى، فقد عدل عن التصريح باسم الأنثى إلى تركيب يشير إليها ويعد كناية عنها، وهو (التنشئة في الحلية).

وقال شاعر في رثاء من مات بعلّة في صدره:

ودبّت في مواطن الحلم علّـــة لها كالصّلال الرقش شر دبيب

فلفظ الكناية هنا (مواطن الحلم) كناية عن موصوف وهو الصدر؛ لأنّ الصدر يوصف بأنه موطن الحلم، فمن عادة العرب أن نسبوا الحلم إلى الصدر، فيقولون: فلان فسيح الصدر أي: صاحب حلم، أو فلان لا يتسع صدره لمثل هذا، أي: لا يحلم على مثل هذا.

وتأتي الكناية عن الحدث بـــ(الغائط): نحو قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾[٣]. قال السمين الحلبي: «وقرأ الجمهور: (الغائط) بزنة فاعل، وهو المكان المطمئن من الأرض، ثم عبّر به عن نفس الحدث كناية للاستحياء من ذكره»[٤].

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٤) الدر المصون: ٢/٣٧٠.

وتأتي أيضاً الكناية عن الكلام بـــ(لحن القول): نحو قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1]. قال السمين الحلبي: «قوله: (في لحن القول) اللحن: يقال باعتبارين أحدهما: الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك ومنه قول الفتال الكلابي في حكاية له:

ولقد وميت لكم لكيما تفهموا وكنت لحناً ليس بالمرتـــاب[2]

واللحن: صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ...»[3].

والكناية عن الموت تتمثل بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[4]. يقول السمين الحلبي: «قوله: (تردى) إمّا من الهلاك أو من تردّى بأكفانه، وهو كناية عن الموت، كقوله:

وخطا بأطراف الأسنّة مضجعي ورداً على عيني فضل ردائيا[5]»[6]

والكناية عن أسباب الموت ومقدماته نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[7]، وقال السمين الحلبي: «وحضور الموت كناية» حضور أسبابه، ومقدماته، قال الشاعر:

---

(١) سورة محمد، من الآية: ٣٠.

(٢) ديوانه: ٣٦.

(٣) الدر المصون: ١٥٧/٦.

(٤) سورة الليل، الآية: ١١.

(٥) البيت لمالك بن الريب من مرثيته المشهورة.

(٦) الدر المصون: ٥٣٥/٦.

(٧) سورة البقرة، من الآية: ١٣٣.

وقل لهم بادروا بالعُذر والتمسوا قولاً يُبرئكم إني أنا المـــوت[1]

أي: أنا سببه»[2].

٣- الكناية عن النسبة:

هو العدول بالكلام عن التعبير المباشر، وذلك عن طريق إثبات الصفة لشيء يتعلق بمن نريد إثباتها له. قال المتنبي في مدح كافور:

إنّ في ثوبك الذي المجـــد فيـــه لضياء يـــزري بكـــل ضـــياء

فقد أراد المتنبي أن يثبت المجد لكافور، وأن يجعله من صفاته، ولكنه بدل أن ينسب إليه المجد بصريح اللفظ فيقول: «هو صاحب مجد» كنّى عن نسبة المجد إليه بقوله: «إنّ في ثوبك الذي المجد فيه» لأنه يلزم من ذلك اتصافه به[3].

وقال أبو نؤاس مادحاً:

فما جازه جود ولا حل دونـــه ولكن يسير الجود حيث يسير

نسب أبو نؤاس الكرم إلى ممدوحه، أو أن يثبت له هذه الصفة، ولكنه بدل أن ينسب إليه الكرم بصريح اللفظ فيقول: (هو جواد)، كنّى عن نسبة الكرم إليه بقوله: (يسير الجود حيث يسير) لأنه يلزم من ذلك اتصافه به. وهذا التلازم بينهما ينبئ عن اختصاصهما كُلٌّ بصاحبه، وهذا غاية الكرم[4].

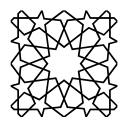

(١) البيت لرويشد بن كثير وهو في الحماسة: ١٠٢/١.

(٢) الدر المصون: ٣٧٩/١.

(٣) ينظر: بحوث منهجية: ٢٠٧.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٢٠٧.